المحاضرة الثانية

اللغة العربية وعلاقتها بالهوية الثقافية

إعداد الدكتورة :ريما عبد الكريم رجوب

جامعة حماه |

المعهد العالي للغات\ ماجستير تأهيل وتخصص

العام الجامعي 2025-2026

— ✦ —

ملخص المحاضرة

تتناول هذه المحاضرة العلاقة العضوية بين اللغة العربية والهوية الثقافية للأمة العربية، وذلك من خلال مقاربة متعددة الأبعاد تجمع بين اللسانيات والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وفلسفة اللغة .تنطلق المحاضرة من الإشكالية المحورية :هل اللغة مجرد أداة تعبير أم أنها تُشكّل الهوية وتُحدّدها؟ وتستعرض المحاضرة خصائص اللغة العربية البنيوية التي جعلت منها ركيزة هوية لا نظير لها، مروراً بمسألة الفصحى والعامية وأثرها في الوحدة الثقافية، وصولاً إلى تحديات العولمة وما تطرحه من أسئلة حول مستقبل اللغة العربية بوصفها حاملةً للهوية.

أولاً :اللغة والهوية — الإشكالية والمفهوم

تحتل مسألة العلاقة بين اللغة والهوية مكانةً محوريةً في الدراسات اللسانية والأنثروبولوجية والسياسية الحديثة، وقد تصاعد الاهتمام بها بشكل لافت في القرن العشرين مع صعود حركات الوعي القومي والهوياتي في مختلف أنحاء العالم .فاللغة ليست نظاماً من الإشارات الصوتية المتفق عليها وحسب، بل هي الوعاء الذي تُصاغ فيه تجربة الإنسان وتُختزن فيه ذاكرة المجتمعات وتُبنى من خلاله الرؤية إلى العالم.

وحين يتعلق الأمر باللغة العربية تحديداً، فإن الأمر يكتسب أبعاداً استثنائية .فهذه اللغة التي تحدّث بها أكثر من أربعمئة وخمسين مليون إنسان في عصرنا الراهن، والتي تُعدّ لغة تعبّد لما يزيد على مليار وستمئة مليون مسلم في أرجاء المعمورة، ليست في نظر المنتمين إليها مجرد وسيلة تواصل بل هي إحدى المقومات الأساسية لهويتهم الحضارية.

و تتشعّب الإشكالية حين ندرك أن الهوية ليست بنيةً ثابتة جامدة بل هي مسار تشكّل متجدد ومتحوّل .ومن ثمّ فإن السؤال لا يقتصر على 'ما الدور الذي تؤديه اللغة في بناء الهوية؟' بل يمتد إلى 'كيف تتفاعل اللغة مع التحولات الاجتماعية والتاريخية في إعادة إنتاج الهوية أو إعادة تشكيلها؟'.

ثانياً :نظريات العلاقة بين اللغة والفكر والهوية

◆ 1. فرضية سابير-وورف :اللغة تُشكّل الفكر

أطلق عالما اللغة الأمريكيان إدوارد سابير وبنيامين لي وورف في مطلع القرن العشرين فرضيةً مثيرة للجدل عُرفت بـ'النسبية اللغوية' أو 'فرضية سابير-

وورف'، مفادها أن اللغة التي يتكلمها الإنسان تُحدّد إلى حدٍّ بعيد طريقة تفكيره ورؤيته للعالم .فالمفاهيم الموجودة في لغة ما والغائبة عن لغة أخرى تعكس اختلافاً في البنية المعرفية لا مجرد اختلاف في المعجم.

وتكتسب هذه الفرضية أهمية خاصة في دراسة اللغة العربية، إذ تزخر بمفاهيم وتعبيرات لا مقابل لها في اللغات الأخرى، كمفهوم 'العصبية' عند ابن خلدون، و'الفروسية'، و'المروءة'، و'الشهامة'، وغيرها من القيم التي تعكس بنية اجتماعية وأخلاقية متميزة .وهذا ما يجعل ترجمة هذه المفاهيم إلى لغات أخرى عملية ناقصة دوماً، إذ لا تنقل المعنى الكامل بكل حمولته الثقافية.

◆ 2. فيلهلم فون هومبولت :اللغة روح الشعب

سبق الفيلسوف الألماني فيلهلم فون هومبولت (1767-1835م) نظرية سابير-وورف بطرحه الفلسفي الرائد حول اللغة بوصفها 'روح الشعب' (Volksgeist). فاللغة في نظره ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار بل هي الأداة التي يُعيد بها الإنسان خلق العالم في وعيه .ويرى هومبولت أن كل لغة تنطوي على رؤية خاصة للكون، وأن فهم ثقافة شعب ما يستوجب التعمق في لغته لا مجرد تعلّم مفرداتها وقواعدها.

وقد أسهمت أفكار هومبولت في تأسيس ما يُعرف اليوم بـ'علم اللغة الثقافي' (Cultural Linguistics) الذي يدرس العلاقة بين البنى اللغوية والبنى الثقافية والمعرفية .وتطبيقاً لهذا المنهج على اللغة العربية، نجد أن بنيتها الاشتقاقية الغنية تعكس نظاماً معرفياً قائماً على مبدأ التولّد والاشتقاق من جذر واحد، مما يُجسّد فلسفة الترابط والوحدة في الكثرة

◆ 3. فرديناند دي سوسير :اللغة نظام من الاختلافات

أرسى اللغوي السويسري فرديناند دي سوسير في كتابه 'دروس في اللسانيات العامة 'أسس اللسانيات الحديثة حين قدّم تصوراً ثورياً للغة بوصفها نظاماً من الاختلافات لا من الماهيات .فالمعنى لا يكمن في الكلمة ذاتها بل في علاقتها بسائر كلمات اللغة .وقد فتح هذا التصور الباب أمام الدراسات البنيوية للغة والثقافة معاً

ثالثاً :خصائص اللغة العربية البنيوية ودلالاتها الهوياتية

◆ 1. الاشتقاق :فلسفة التوليد اللغوي

تقوم اللغة العربية على نظام اشتقاقي فريد يرتكز على الجذر الثلاثي)وأحياناً الرباعي (الذي يُولّد منظومة واسعة من المعاني المترابطة .فمن جذر)ع-ل-م(تتفرع مئات الكلمات كعِلم وعَلِم وعَلَّم وتَعَلَّم ومعلومات وعالِم وعلاّمة ومعلم ومعلمة وعلاّمة وأعلم واستعلم، وكلها تحمل في عمقها دلالة 'الإدراك والمعرفة'.

ويرى اللغوي العربي إبراهيم أنيس أن هذه البنية الاشتقاقية تعكس عقلاً منهجياً يُنظّم الواقع في منظومات مفهومية متماسكة، ويُجسّد الرابط الوثيق بين الكلمات ضمن المنظومة الواحدة .وهذا النظام يجعل اللغة العربية قادرة على استيعاب المصطلحات الجديدة والمفاهيم الوافدة بإخضاعها لبنيتها الاشتقاقية الداخلية دون الاضطرار إلى الاستعارة الكاملة.

◆ 2. الإعراب :نظام التشكيل الوظيفي

يُميّز الإعراب اللغةَ العربية عن كثير من لغات العالم، إذ يُحدّد وظيفة الكلمة في الجملة من خلال تغيير حركات آخرها)الضم للرفع، والفتح للنصب، والكسر للجر، والسكون للجزم .(وهذا النظام الدقيق يُتيح للعربية مرونةً استثنائية في

ترتيب الكلمات داخل الجملة دون إخلال بالمعنى، مما يُفضي إلى ثراء أسلوبي وبلاغي منقطع النظير.

ولعل أبلغ دليل على الأثر الهوياتي للإعراب أن النحاة العرب القدماء نظروا إلى اللحن)الخطأ في الإعراب (نظرةً تتجاوز الخطأ اللغوي إلى مسّ الهوية وإفساد الانتماء .يروي المبرّد في كتاب 'الكامل' أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: 'تعلموا العربية فإنها تثبّت العقل وتزيد في المروءة'.

◆ 3. البلاغة :ذروة الوعي الجمالي

تُعدّ البلاغة العربية بأقسامها الثلاثة)المعاني والبيان والبديع (منظومةً نقدية وجمالية متكاملة لا نظير لها في كثير من الثقافات .وقد نشأت البلاغة العربية أصلاً في سياق ديني محدد هو تفسير الإعجاز القرآني وبيان وجوه التفوق اللغوي في كتاب الله، لتتطور بعد ذلك إلى علم مستقل يشمل نقد الشعر والنثر وتقييم الأساليب الأدبية.

ويُلاحظ المستشرق الإيطالي فرانشيسكو غابرييلي أن البلاغة العربية مثّلت ظاهرة ثقافية فريدة إذ ربطت الجمال الأسلوبي بالفضيلة الأخلاقية والقيمة الدينية في آن واحد، على نحو يجعل الخطأ البياني خطأً أخلاقياً في بعض السياقات.

رابعاً :الفصحى والعامية — ازدواجية لغوية وإشكالية هوية

◆ 1. ظاهرة الازدواجية اللغوية (Diglossia)

رصد عالم اللغة الأمريكي تشارلز فيرغسون في دراسته الرائدة عام 1959م وجعل اللغة العربية أحد ،(Diglossia) 'ظاهرةً سمّاها 'الازدواجية اللغوية

نماذجها الكلاسيكية الأربعة .والازدواجية اللغوية تعني وجود مستويين متمايزين يُستخدم في الكتابة (H - High) من اللغة في مجتمع واحد :مستوى رفيع يُستخدم في (L - Low) والخطاب الرسمي والتعليم والدين، ومستوى محكي التواصل اليومي غير الرسمي.

وعلى المستوى العربي، تُمثّل الفصحى)العربية المعيارية الحديثة المنحدرة من الفصحى الكلاسيكية (المستوى الرفيع، في حين تتعدد اللهجات المحكية من المغرب إلى الخليج تعدداً كبيراً يصل أحياناً إلى حدّ التعذّر الفعلي للفهم المتبادل بين أطراف الوطن العربي.

◆ 2. الفصحى :رباط الوحدة ورمز الهوية الجامعة

تضطلع الفصحى بوظيفة هوياتية جوهرية لا تؤديها أيٌّ من اللهجات المحكية، وهي وظيفة الرابط الثقافي الجامع بين العرب على اختلاف أوطانهم وتباين لهجاتهم .فحين يجلس مثقف مغربي إلى جانب مثقف عراقي ومثقف خليجي، يكون الحوار الوحيد الممكن بينهم هو الحوار بالفصحى، مما يجعلها جسراً ثقافياً لا غنى عنه.

ويذهب الباحث السوري صبحي الصالح إلى أن الفصحى ليست مجرد مستوى لغوي وظيفي بل هي 'الهوية اللغوية المكثّفة للحضارة العربية الإسلامية'، إذ تحمل في طياتها الإرث الثقافي والديني والأدبي المتراكم على مدى أربعة عشر قرناً.

◆ 3. اللهجات :تعدد الأوجه الثقافية

في المقابل، لا يمكن إغفال الدور الثقافي الحيوي الذي تضطلع به اللهجات المحكية، فهي الوعاء الحقيقي للتعبير العفوي والوجداني والتراث الشفهي

الشعبي .والأغنية الشعبية والمثل السائر والحكاية الشفهية والنكتة والتعابير الاصطلاحية المحلية، كل ذلك يسكن في اللهجة لا في الفصحى.

ويرى المفكر المغربي عبد الله العروي أن ثنائية الفصحى والعامية ليست مشكلة لغوية محضة بل هي انعكاس لشرخ اجتماعي وتاريخي عميق بين النخبة المثقفة والجماهير الشعبية، وحلّها لا يكون بإلغاء إحداهما لصالح الأخرى بل بالارتقاء التعليمي والثقافي الذي يجعل الفصحى ملكاً مشتركاً للجميع

خامساً :اللغة العربية في مواجهة تحديات العولمة

◆ 1. ضغوط العولمة اللغوية

تفرض العولمة تحدياتٍ غير مسبوقة على اللغة العربية بوصفها ركيزةً للهوية الثقافية .فالهيمنة الساحقة للإنجليزية في الفضاء الرقمي ومنصات التواصل الاجتماعي والبحث العلمي والتجارة الدولية، تضع العربية في موقع دفاعي صعب .ويُضاف إلى ذلك ظاهرة الدخيل اللغوي المتدفق بلا انقطاع من خلال المصطلحات التقنية والإعلامية والثقافية التي لا يجد المجتمع العربي في أغلب الأحيان مقابلاً معرّباً جاهزاً لها.

وقد رصدت الباحثة اللسانية الأمريكية من أصول عربية رجاء المكّي في دراستها المعنونة 'اللغة العربية في العصر الرقمي 'أن نسبة المحتوى العربي على شبكة الإنترنت لا تتجاوز ثلاثة بالمئة من إجمالي المحتوى الرقمي العالمي، وهي نسبة لا تتناسب بأي حال مع حجم الناطقين بالعربية وثقلهم الحضاري

◆ 2. التخطيط اللغوي :مسؤولية الدولة والمؤسسات

في مواجهة هذه التحديات، يتصاعد الحديث عن ضرورة التخطيط اللغوي المنهجي الذي يتضمن توحيد المصطلح العلمي والتقني، وتطوير مناهج تعليم العربية، وتعزيز حضورها في الفضاء الرقمي، ودعم حركة الترجمة إليها. وتضطلع مجامع اللغة العربية في القاهرة ودمشق وعمّان وبغداد والرباط بدور محوري في هذا الشأن، وإن كان المنتقدون يرون أن هذه المجامع تتحرك بإيقاع أبطأ مما تستوجبه وتيرة التحولات المعاصرة.

◆ 3. اللغة العربية في التعليم :المعضلة والمخرج

يُشكّل التعليم أهم ساحة لمعركة الهوية اللغوية .وقد أثارت سياسات التعليم بالإنجليزية أو الفرنسية المعتمدة في عدد من الدول العربية)لا سيما في تعليم العلوم والتكنولوجيا والطب (جدلاً واسعاً حول أثرها في تهميش العربية وخلق نخبة متعلمة مقطوعة الصلة بموروثها الثقافي .وفي هذا السياق يُحذّر عالم اللغة الجزائري الطاهر ميلة من 'الأمية اللغوية المزدوجة 'التي يقع فيها المتعلم حين يتقن لغة أجنبية دون أن يُتقن لغته الأم

سادساً :اللغة العربية والهوية في ضوء الراهن

◆ 1. اللغة العربية في الفضاء الرقمي

شهدت السنوات الأخيرة نقلةً نوعية في حضور اللغة العربية على الإنترنت ومنصات التواصل الاجتماعي، لا سيما بعد أحداث 'الربيع العربي 'عام 2011م التي أظهرت اللغة العربية أداةً للتعبئة السياسية والمجتمعية بقوة غير مسبوقة .وقد صعدت العربية لتصبح من أكثر لغات تويتر (X) نشاطاً، وتحوّل الفضاء الرقمي إلى ساحة لإعادة إنتاج الهوية العربية وتشكيلها.

'غير أن هذا الحضور يرافقه إشكاليات لغوية خطيرة، أبرزها انتشار 'العربيزي أي كتابة العربية بالحروف اللاتينية والأرقام، وهي ظاهرة تكشف (Arabizi) عن أزمة هوية حقيقية لدى الأجيال الشابة التي باتت تشعر بأن الفصحى بعيدة عن تجربتها اليومية.

◆ 2. نحو علاقة صحية بين اللغة والهوية

يؤكد كثير من الباحثين أن الحل لا يكمن في الإيديولوجيا اللغوية الدفاعية التي تنظر إلى اللغة العربية كموروث مهدَّد يجب تحصينه، بل في تطوير علاقة إيجابية ديناميكية مع اللغة تجعلها أداةً حيّةً لإنتاج المعرفة وتداولها في جميع الحقول. وهذا يستوجب إصلاحاً تعليمياً جذرياً، وتشجيعاً للإبداع الأدبي والفكري بالعربية، ومواكبةً للتطورات اللغوية العالمية.

ويخلص اللغوي والمفكر المصري أحمد مختار عمر إلى أن اللغة العربية تمتلك من الطاقات الداخلية ما يجعلها قادرةً على المنافسة والاستمرار شريطة أن يُحسن أهلها استثمارها وتطويرها، وأن ينظروا إليها نظرةً منتجة لا استهلاكية فحسب.

— ✦ —

سابعاً: خلاصة واستنتاجات

توصّلنا في هذه المحاضرة إلى جملة من النتائج يمكن إجمالها على النحو الآتي:

أولاً: اللغة والهوية علاقة جدلية تبادلية لا علاقة سببية أحادية الاتجاه؛ فاللغة تصنع الهوية والهوية تُحدّد نظرة مجتمعها إلى لغته وطريقة تعامله معها.

،ثانياً :تتميز اللغة العربية بخصائص بنيوية ووظيفية فريدة)الاشتقاق والإعراب، والبلاغة، والارتباط بالنص القرآني (تجعل علاقتها بالهوية أعمق وأكثر تعقيداً من أي لغة أخرى.

،ثالثاً :الازدواجية اللغوية)الفصحى والعامية (ليست أزمة ينبغي حسمها بالإلغاء بل هي واقع ينبغي إدارته بحكمة من خلال تعزيز الفصحى دون إقصاء الثراء الثقافي للهجات.

رابعاً :التحديات التي تواجه اللغة العربية في عصر العولمة حقيقية وجدية، لكنها ليست قضاء مُحتَّماً؛ وثمة نماذج ناجحة في العالم لإحياء اللغات وتطويرها دليلٌ على إمكانية الفعل والتغيير.